إيران والسعودية ولغة الفهم المفقودة

علي الصراف
كاتب عراقي

ليست جماعة الحوثي هي التي تطلق الصواريخ والمسيّرات ضد السعودية. إيران هي التي تفعل ذلك.

لا أحد يحتاج إلى أوهام. وليس من المفيد الافتراض أنه يمكن إقناع إيران بالتخلي عن أعمال العدوان ضد المملكة. ولئن كانت دول أخرى في المنطقة تشعر بأنها في مأمن من الضربات، فهذه أوهام أخرى، لا فائدة ترتجى منها.

الحوثي يضرب السعودية لأن إيران هي التي تأمره بذلك، ولأنها تريد أن تجعل الرياض تعيش تحت وطأة مشاعر الخوف من المزيد من الضربات، بينما ترسل وزير داخليتها ليتفاوض مع أحد ما يأتي من طهران إلى بغداد.

الحوار الإيراني مع السعودية هو حوار صواريخ. أما الحوار السعودي مع إيران فهو حوار قناعات بأن علاقات السلام أفضل لدول المنطقة ولإيران نفسها من هذا السلوك الهمجي.

هناك، بهذا المعنى، لغتان لا توصل إحداهما إلى الأخرى. والآذان قد تسمع هذرا، إلا أنها لا تنصت لمعناه.

الحقيقة المُرّة التي لا تزال تحتاج إلى فهم، هي أن إيران لن تسلك سلوكا معتدلا مع دول المنطقة. ليس لأنها لا تريد ذلك فحسب، بل لأنها لا تقدر عليه من الأساس.

إيران دولة مشروع. وهذا المشروع يفرض قواعده ومعاييره ونمط علاقاته في محيطه الإقليمي. وهي ما يشمل عصابات وميليشيات وأعمال تخريب وفساد وقتل وتفجيرات وانعدام استقرار.

في المقابل، هناك لدى بعض دول المنطقة اعتقاد يقول بأنه يمكن سحب البساط من تحت أقدام هذا المشروع بوسائل ناعمة. من بينها الحوار، وتقديم عروض التعاون، والقبول بتسويات أمنية.

هذا الاعتقاد يفترض أن إيران الولي الفقيه غبية ولا تفهم المقصود النهائي من تلك الوسائل الناعمة.

هناك لغتان لا توصل إحداهما إلى الأخرى. الحوار الإيراني مع السعودية هو حوار صواريخ أما الحوار السعودي مع إيران فهو حوار قناعات بأن علاقات السلام أفضل لدول المنطقة ولإيران من هذا السلوك الهمجي

أحد أبرز الوسائل الناعمة التي شغلت الشاغل، من دول الجوار وصولا إلى فرنسا، هو إبعاد العراق عن الخضوع لهيمنة إيران وميليشياتها. ويعزز مصطفى الكاظمي، رئيس الوزراء في هذا البلد، هذا المنحى لدوافع شخصية في أحسن الأحوال، أو لتدابير تأخذ الإفلاس المادي بنظر الاعتبار، حيث لا تستطيع إيران أن تواصل نهب بلد لم يعد يملك ما يكفي لتيسير

يكلف إيران شيئا. أي جرو من جرائها يمكن أن يطلق على رأسه النار. ولن تتوانى طهران عن المشي في جنازته والبكاء عليه.

أين موقع الحوثي من هذه الحال؟

لا يوجد في اليمن، من يناور على نفوذ إيران. الحوثي يقول جهارا نهارا إنه لا يريد أن يوقف الحرب، كما لا يريد أن يخوض في مفاوضات سلام.

ومثلما تحارب إيران في العراق من أجل بقاء هيمنتها عليه حتى آخر عراقي، فإن الحرب ضد السعودية لن تتوقف حتى آخر يمني.

مصائر الحصار والفقر والفشل التي تطحن مراكز نفوذ إيران الأخرى في سوريا ولبنان، تقول الشيء نفسه. لم يبق هناك ما يفترض للدولة أن تفعله كدولة شؤونه. أو بعبارة أوضح، أن تدعم إيران هذا الوهم، حتى يعود العراق لكي يتمكن من الحصول على تمويلات وقروض، قبل أن تعود لتنقض عليها من جديد.

الوهم الآخر، هو أن الانتخابات المزمعة الشهر المقبل، يمكن أن تغيّر الموازين. على الأقل هذا ما تعتقده الولايات المتحدة. وهي تشدد على مكافحة أعمال التزوير بناء على اعتقاد يقول إن إيران سوف ترخي قبضتها عن العراق إذا ما تراجع نفوذ أحزابها وميليشياتها.

ولكن "دولة المشروع" مستعدة إلى أن تشن حربا، وتقتل فيها الملايين، لكي لا تسمح لأي نتائج أن تؤدي إلى سحب البساط من تحت أقدامها.

والعراق هو جوهرة التاج، ليس لأنها تنهب منه نحو 15 مليار دولار سنويا مقابل تجارة الفساد، بل لأنها إذا خسرته خسرت كل امتداداتها الأخرى في المنطقة.

الكاظمي إذا اتضح أنه يلعب لعبته لتخفيف قبضة إيران، فإن قتله لن تأخذ مصالح مجتمعها بنظر الاعتبار. الصورة واضحة تماما في لبنان. وهي واضحة أكثر في سوريا. فالدولة هي دولة العصابة، فحسب. لا شيء آخر. وذلك لأن المشروع الإيراني لا يسمح بأن يتصرّف الواقعون بين سندان العصابة المحلية ورحى العصابة في طهران أن يكونوا دولا ترعى مصالح شعوبها، فتقوى وتتمايز عن الحاجة إلى الارتباط بالمشروع الثوري الإيراني.

إيران الولي الفقيه لا تخادع نفسها. ولا يوجد مبرّر للاعتقاد بأنه يمكن استغباؤها. هذا الاعتقاد هو نفسه غبي.

فما الحل، إذن؟

مفهوم تماما كيف أن السعودية وحلفاءها لا يريدون حربا مع إيران. التكاليف ضخمة، والدمار سيكون هائلا. والحرب شأن يتعيّن ألا يتوقف إلا في طهران. وهذا كثير حتى على الولايات المتحدة نفسها.

اللغة يجب أن تكون لغة واحدة، لكي يمكن لمَنْ يسمع أن يفهم.

عندما تُهزم إيران في اليمن، فإن انكسار المشروع يمكن أن يمتد، بوسائل القوة نفسها، إلى العراق وسوريا ولبنان، على الأقل حتى تدرك دولة العصابة التي تدور في فلك طهران، أنها يجب أن تتصرف حيال مصائر مجتمعها كدولة.

وعندما يذهب وزير الداخلية السعودي إلى بغداد لكي يتفاوض مع طهران، في المرة التالية، يجب أن يتعلّم كيف يتحدث بلغتها هي، لا بلغته هو.

هي ترسل صواريخ ومسيرات لتهاجم أرامكو، قبل اللقاء وبعده. وعليه أن يطلق ألف صاروخ وألف غارة جوية، وأن يزرع الأرض ذعرا في كل مكان يوجد فيه حوثي. فيكون الحوار بنّاءً وإيجابيا ومفهوما.

أي حوار آخر هو مضيعة للوقت وتغذية أوهام.

حزب الله ومآلات الدور الوظيفي

إبراهيم الجبين
كاتب سوري

الوضع القلق الذي يمرّ به حزب السيّد اليوم، ليس متأتيا فقط من كونه مؤسسة تعمل لصالح الأجنبي (الإيراني) على الأراضي اللبنانية وتنفذ أجندته وتتحرّك من أجل أوراقه التفاوضية حول الملف النووي والعقوبات وتعقيدات المحاور في المنطقة، بل لأنه حين قرّر أن يسيطر على الدولة، لم يكن لديه مشروع للحُكم يواكب المستوى الذي كان لبنان قد وصل إليه قبل ظهور حزب الله إلى الوجود. فلبنان المتشكّل كبلد للحريات والسوق المفتوحة واللعبة الديمقراطية، حتى في أحلك أزمنتها حين تحولت إلى محاصصة طائفية، يعتبر نموذجا متقدما على غيره من البلدان المحيطة به. ولم تكن ولادة عصر حزب الله إذاك إلا وأدا للحياة العامة اللبنانية بكل تجلياتها، الإعلام والتجارة والثقافة والدور الجيوسياسي.

مشروع حزب الله يتعارض كليّا مع فكرة لبنان، ومع كل ما يمكن أن يفكّر فيه أي لبناني، حتى أولئك الذين طحنتهم الحرب وخرجوا منها يبحثون عن سبل للعيش، فقبلوا الانخراط في أطر عشائرية وطائفية هشّمت ملامحهم، لن يستطيعوا الاستمرار في غض الطرف عما قاد حسن نصرالله وحزبه لبنان إليه.

لبنان في انهيار متفاقم، وحزب الله يبحث عن المزيد من الغوص في التراب السوري، تحت القصف والاستهداف المتواصل للمقاتلات الإسرائيلية التي تمسح الخارطة السورية بشكل دائم بحثا عن الميليشيات الإيرانية، كل ذلك وميليشيا حزب الله مكملة في طريق اللاعودة، وجائزة الترضية التي يقدّمها حسن نصرالله لا تعدو كونها شحنات وقود إيراني عبر البحر. لكن هل هذا فقط ما حقّقه الحزب من تواجده الميليشيوي في سوريا؟ بالتأكيد لا.

التصاق حزب الله بمخططات خامنئي والحرس الثوري، صحيح أنه أبعده كليّا عن الحالة اللبنانية والعربية بالعموم وجعله في مواجهة مستمرة معها وكأنه حزب فارسي، إلا أنه جعله أحد المستفيدين من لعبة التقاسم التي تجري في المنطقة، لاسيما صفقة الغاز المصري الذي سيعبر الأردن ويمرّ بجنوب سوريا، حيث درعا، ليصل إلى الأراضي اللبنانية. إذن فحزب الله يحقّق ما وعد اللبنانيين به، ويجلب إليهم الغاز ويحلّ مشاكل الطاقة، لكن كيف؟ باحتلال حوران وتهجير سكانها. وهذا المشهد بحدّ ذاته يعكس الكيفية التي تُرسم بها الحدود في هذه المرحلة ما بين مكونات المشرق. حدودٌ تُرسم بالدم، كما قال ذات يوم الزعيم الكردي مسعود البارزاني، وحدودٌ أخرى تُرسم بالغاز، كما يحاول حزب الله أن يقول ويفعل.

ثمن ذلك، لن يكون مجرّد هروب إلى الأمام، وتأجيل للمواجهة المحتومة مع من يجدون أنفسهم اليوم مرغمين على مغادرة بيوتهم وأراضيهم في حوران، إلى المجهول، بل في أن هذا المسلسل الوظيفي لن تكون له نهاية، وإن بدت في هذه الأوقات مكافأة يتلقاها حزب الله لوقوفه إلى جانب نظام الأسد في سوريا بأوامر من إيران، مكافأة يعتقد من صمموها أنها سوف ترفع من أسهمه في الشارع اللبناني وتعزّز هيمنته أكثر.

ولكن أي حظ سيكون للسيّد وحزبه في لبنان أفضل من حظ المرشد وجمهوريته الإسلامية في إيران؟ الفارق في الحجم لا أكثر. ولكن هندسة الحالتين واحدة، فإيران الآن ليست سوى ميليشيا مضخّمة عن تلك الميليشيات التي تحرّكها ومن بينها حزب الله اللبناني وحزب الله العراقي والحوثيون والفواطم والنجباء والحشد الشعبي وغير تلك الدمى التي يجري التحكّم بها عن بعد، دون النظر إلى أوضاع المواطنين المعيشية الفاعل الأول في ترسيخ الاستقرار الاجتماعي.

وكما أن الشعوب في إيران على صفيح ساخن، يشتكون الفاقة وانعدام المتطلبات الأساسية، فإن اللبنانيين على صفيحهم الساخن أيضا، وباتوا ينظرون إلى سعر رغيف الخبز كما لو كانوا يراقبون سعر الذهب والنفط.

ماذا بعد صفقة الغاز؟ وما الذي ستحلّه من مشاكل في لبنان؟ وهل اقتصر الانهيار على الكهرباء والطاقة؟ أم أن نظاما بأكمله يعاني الشلل في عهد "الرئيس القوي" كما يطيب لبعض المسيحيين تسميته؟ فريق منهم يريد لهذا الرئيس وعهده المزيد من التدهور كي يقول بعد حين "ها نحن ذا" الذين بوسعنا إنقاذ البلد دون أن نضع أيدينا بيد حزب الله وإيران. ولكن حتى يأتي ذلك الحين لن يبقى من لبنان الذي نعرف شيء يذكر.

يبدو الأمر وكأن فرصة تاريخية أعطيت للشيعة العرب، للانطلاق من حال التماهي مع المحيط، إلى زمن يطرحون فيه تصوراتهم عن الحكم والدولة. وهاهو "الماكيت" العراقي ماثلا أمام أنظار العالم، هو إسلام سياسي أيضا، ولا أهمية إن اختلف المذهب وتباينت الطائفة، فالمرشد هنا والمرشد هناك، والهرمية القدسية هي التي تمسك بالمقود، والتحدي الكبير القادم، لن يكون مقتصرا على مواجهة كيف تدار الدولة، بل كيف يدار المجتمع؟ وهي أيضا من الاستحقاقات المؤجلة على جدول أعمال حزب الله، الصدام قادم، وأولى نذره ستكون داخل المجتمع الشيعي اللبناني ذاته، فمن يسمع تصريحات رئيس مجلس النواب وزعيم حركة أمل الشيعية نبيه بري، ومعها المواقف العديدة لمعارضي نهج حزب الله من مثقفين وسياسيين شيعة، سيدرك أن الكيل طفح، وأن الحياة المدنية وتعدّدها والحق بالاختلاف فيها لن تكون لقمة سائغة للسيدّ ومعاونيه وورثتهم في المستقبل.

مشروع حزب الله يتعارض كليًا مع فكرة لبنان ومع كل ما يمكن أن يفكّر فيه أي لبناني حتى أولئك الذين طحنتهم الحرب فقبلوا الانخراط في أطر عشائرية وطائفية هشّمت ملامحهم

وبينما تخلو الساحة تباعا من زعامات شيعية كبرى، أحدثها رحيل رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان عبدالأمير قبلان، يبقى أن أكبر الخاسرين في حرب الأعوام العشرة الماضية في سوريا هو حسن نصرالله، الذي هبط من مشروع المقاوم إلى مقام الميليشوي المرتزق، والذي يتصرّف في سوريا واليمن، كشركة "بلاك ووتر" لبنانية لا أكثر، متناسيا أنه بسياساته تلك إنما يجرّ معه هيبة العمامة السوداء إلى صورة نمطية ستبقى تلاحقها لقرون قادمة.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk